المحور الثالث

دور الموانئ الجزائرية في الحروب عبر العصور

المرسى الكبير بوهران ودوره في الملاحة المتوسّطيّة من النشأة إلى الاحتلال الإسباني (904ـ1509)

د. محمّد حسن/
جامعة تونس

جسّد طور تأسيس مدينة وهران هذا التّفاعل الحاصل بين المغاربة النّازلين بهذه الرّبوع والأندلسيين لإنشاء مدينة مستحدثة نجهل الكثير عن تخطيطها وكيفيّة التّوطين بها. وقد كان من مسوّغات هذا الإنشاء الأساسيّة ما كان يحصل في شرق بلاد المغرب من تحوّلات سياسيّة واقتصاديّة، تجسّدت في توطيد سلطة جديدة بإفريقيّة. وقد مثّلت المدينة – الميناء عصرذاك إحدى محاور الصّراع في المتوسّط.

وفي زمن ثان، بين القرنين الخامس وأوائل السّابع هـ/ 11-13م، أضحى المرسى الكبير من أهمّ موانى الدّولة المرابطيّة، إذ اتّخذ يوسف بن تاشفين من مينائها مرسى لأسطوله. وعموما شهدت الحقبة المرابطيّة والموحديّة التي توحدّت فيها العدوتان المغربيّة والأندلسيّة تطوّرا نوعيّا للمدينة، مثلما يتّضح من وصف الإدريسي.

أمّا الطّور الثّالث الذي تزامن مع تاريخ الدوّلة الزيّانيّة، فقد مثّل هذا المرسى محطّة هامّة في التّجارة المتوسّطيّة، وعرف فترات مراوحة بين التّجارة النّافقة وبين القرصنة والمقاومة لها، وذلك فضلا عن تدفّق موجات من المهاجرين من العدوة الأندلسيّة.

ورغم وضوح هذه الأطوار، فإنّ كتابة تاريخ ميناء وهران يتطلّب أوّلا تجميع المادّة المتفرّقة في مظان المصادر العربيّة والوثائق الأجنبيّة وإعادة تركيبها، مع المراوحة بين المعطيات المحليّة والتطوّرات المتوسّطيّة، ودون إغفال للمقارنات مع مدن موانٍ أخرى من البلاد المغربيّة الأندلسيّة خصوصا والمتوسّطيّة عموما.

أوّلا ـ نشأة المدينة الميناء وتطوّرها إلى حدّ قيام الدّولة المرابطيّة :

شهدت التّجارة البحريّة تطوّرا كبيرا بسواحل الأندلس في عصري الإمارة والخلافة. وقد تجسّد ذلك في سعي الأندلسيين إلى إنشاء مدن على ساحل العدوة المغربيّة، وأوّلها تنّس سنة 262 هـ/ 875م ووهران سنة 290 هـ / 902م، وذلك لغرض الرّبط مع تلمسان، قاعدة المغرب الأوسط والمدينة ذات النّشاط التّجاري الكبير.

1. الموقع والموضع : بين المجالين القبلي والبحري

تقع وهران على السّاحل الشّمالي الغربي للبحر المتوسّط، قبالة المراسي الأندلسيّة، وخصوصا قرطاجنّة ولقنت والمريّة، وهي على مسافة 50 فرسخا (أو 300كم) من هذه الأخيرة حسب الزّهري. قال المقدسي في هذا الصّدد : " يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة". وأضاف الإدريسي : " وهي تقابل مدينة المريّة من ساحل برّ الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان [يومان حسب الروض المعطار للحميري]. ومنه أكثر ميرة ساحل جزيرة الأندلس".

وقد ارتبط ميناء وهران بالموانى الأندلسيّة، وعلى حدّ عبارة ابن سعيد : " وهي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدويّة. ومينـاؤها مشهور مأمون في الهول"[1].

وهي على الضفّة اليسرى من الوادي، غرب أرزاو. جاء في الإدريسي : " ومنها إلى طرف مشانة روسيّة خمسة وعشرون ميلا. وعلى التّقوير 32 ميلا. ومن طرف مشانة إلى مرسى أرزاو 18 ميلا"، وشرق هنين : " فمن طرف الدّفالي إلى طرف الحرشا 12 ميلا، ومنه إلى وهران 12 ميلا" [2].

2 ـ نشأة المدينة الميناء حسب الرّواية الأندلسيّة :

اعتمدت هذه الرّاية على نصّي البكري وابن حيّان أساسا، وبدرجة أقلّ ابن خلدون. ويمكن أن نقسّم أطوار النّشأة إلى مراحل عدّة :

أ ـ النشأة الأولى سنة 290 هـ / 904 هـ :

اقترنت النّشأة بمستلزمات التّجارة البحريّة بين العدوتين وبالبنية القبليّة في آن واحد. فقد اتّفق أصحاب الأرض، وهم نفزة وبنو مزقن، ولعلّهم كانوا من أتباع تلمسان، مع الأندلسيين على

1- Ma Dolores Rodriges Gomez, las riberas nazari y de Maghreb (siglos XIII –XV), Granada 2000, p 21.

ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، ص 140.

2- الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص 128.

إنشاء مدينة هناك، وذلك قبل أن تنتقل الهيمنة على المجال لقبيلة أزداجة، التي أضحت حامية للمدينة.

فقد استوطنت نفزة وبنو مزقن مجال وهران بين سنتي (290 ـ 297 هـ / 904 ـ909 م)، وظلّت مسيطرة على المدينة. ويرجّح أنّها من بين القبائل التي نزلت منذ العهد الرّوماني بهذه النّاحية، وقد ذكرت كذلك تحت اسم : مزغان ـ مزغنة ـ مزغنان، في علاقة بإنشاء مدينة الجزائر : جزائر بني مزغنة [1].

ب ـ طور أزداجة وحكم محمّد بن عون التّابع لكتامة (297- 343 هـ/ 909 ـ954 م) :

لمّا هاجمت المدينة قبائل عديدة، أضرمت النّيران في المدينة في ذي الحجّة سنة 297 هـ. وكان أن استنجد بنو مسقن بأزداجة، فأنجدوهم. وقد عدّها ابن خلدون من بين أجذام قبائل البرانس[2]. وبهذا انتقلت الهيمنة على المدينة إليها.

ومثّل تاريخ شعبان 298 هـ/ أفريل 911م الإنشاء الثّاني للمدينة، بعد أن أضحت تابعة لتاهرت التي أخضعها الفاطميون قبل سنتين. وكانت أزداجة تدور في فلك الفاطميين الذين بلغوا سنة 298 هـ إلى حدّ تاهرت وتنس، إذ سعى المهدي إلى التوسّع على حساب الأندلس، وإن عدل عن مشروعه فيما بعد[3].

1- Il paraît qu'elle correspond à la tribu citée dans les sources latines : MESGENENSES.

2- ابن خلدون، **تاريخ**، ج 6، ص 176. ابن حزم، 461

3 Dachraoui, Le califat fatimide, p142.

قال البكري في خصوص الإنشاء الثّاني : "ثمّ عاد أهل وهران إليها في السّنة بعدها، سنة 298هـ بأمر من حميد بن دوّاس بن صولات، ويقال داود عامل تاهرت. وابتدأوا بنيانها في شعبان من هذه السّنة، فعادت أحسن ممّا كانت وولّى عليهم داود بن صولات اللّهيصي : محمّد بن أبي عون"[1].

جـ - طور الّصراع بين مغراوة والفاطميين(317 -343 هـ/929 م) :

ورد ذكر مغراوة بوهران في نصّ البكري ابتداء من سنة 317 هـ/929 م. على أنّها لم تكن بعيدة عن دائرة التّأثير الأندلسي، مثلما يفهم من نصّ ابن حيّان : "وكان الخير بن محمّد بن خزر [رئيس مغراوة] يخاطب النّاصر لدين اللّه أيضا باسمه، معرّفا له بما يجري من الأخبار على يده في الجهة التي يقوم بها لأبيه محمّد من مدينة وهران وما يليها من السّاحل. فينفذ أجوبته ويتوخّى إلطافه ومسرّته، حسبما يفعل بأبيه محمّد"[2]. وفي كتاب ثان أعلم الخير بن محمد بن خزر أنّه سيفتح مدينتي شلف وتنّس.

وقد راسل الخير بن محمّد بن خزر يخبره فيه بنزول عبد الرحمان بن عبيد اللّه المهدي بساحل وهران وتهديمه لحصن تابع لزناتة يدعى مغرفة ؟ وقد بنى عوضا عنه حصن هندرج، " شحنه بالرّجال والعدّة". وكان المقدّم على أتباع الفاطميين محمّد بن مهدي.

1- اللهيصي : نسبة إلى ولهاصة : بطن من نفزاوة، استقرت فروع منها بسواحل تلمسان (في الجبال القريبة من هنين على عهد الحسن الوزّان) حيث اختلطت بكوميّة (ابن خلدون، ج 6، ص 233.ابن حزم، ص 65.464).

2 - Ibidem, p.151-156,206,223-241. ؛ ابن حيّان، **المقتبس**، ج 5، ص 259-260.

وتحدّث ابن خزر عن كيفيّة مهاجمته لهذا الحصن وإحراقه وقتل محمّد بن مهدي. وهكذا تراجعت سلطة الفاطميين إلى تاهرت، فيما أخبر الخليفة النّاصر تابعه ابن خزر بكونه يستعدّ لتعبئة الجيوش وتهيئة الأسطول لغزو كلّ من سبتة ووهران[1].

د ـ الدّور اليفرني ومرحلة الصّراع الفاطمي ـ الأموي :

لم يكن دور يفرن غائبا بناحية وهران منذ نهاية القرن الثّالث هـ / التاسع م، فقد أضحت المدينة تحت سلطة يعلى بن محمّد بن صالح بين سنتي 343.347 هـ / 954.958م، وذلك بعد أن انتهى حكم أزداجة وفشلت مغراوة في السّيطرة عليها، ودخلها يعلى بن محمّد بن صالح اليفرني وخرّبها. وكان كلّ من البطنين الزّناتيين : بني يفرن ومغراوة يدوران في فلك الأندلس، رغم التّنافس الحاصل بينهما[2].

ونظرا إلى ميل الأمويين إلى يعلى بن محمّد سنة 341 هـ/ 953م، تحوّل رئيس مغراوة محمد بن خزر من عدوّ إلى حليف للفاطميين إلى حدّ وفاته سنة 350 هـ/ 961م. ويمكن أن نفهم في هذا الإطار محاولة يعلى بن محمّد التوسّع على حساب الفاطميين بوهران وطرد أزداجة منها وسيطرته على مجال يمتدّ ما بين "تاهرت وطنجة".

1- ابن حيّان، نفسه، ج 5، ص 306.

2- ابن خلدون، **تاريخ**، ج 7، ص 36.. ورد في ابن خلدون ما يلي : " فلمّا خطب عبد الرّحمان النّاصر طاعة الأمويّة من زناتة أهل العدوة، واستألف ملوكهم، سارع يعلى لإجابته واجتمع عليها مع الخير بن محمّد بن خزر وقومه مغراوة وأجلب على وهران، فملكها سنة 343 هـ من يد محمّد بن عون، وكان ولاّه عليها صولات اللميطي أحد رجالات كتامة سنة 298 هـ 2

غير أنّ ذلك أثار ردّ فعل الفاطميين الذين هاجموا إيفكان قاعدة بني يفرن، وخرّبوها وأضعفوا بهذا بني يفرن بالمغرب الأوسط[1].

جاء في ابن خلدون : " فلم يزل سلطان يعلى بن محمّد بالمغرب عظيما إلى أن أغزى المعزّ لدين اللّه كاتبه جوهر الصقلّي إلى المغرب سنة 47 [958م]. فلمّا فصل جوهر بالجنود عن تخوم إفريقيّة بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمّد اليفرني إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه، ونبذ عهد الأمويّة، وأعمل إلى لقيه الرّحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الانقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناتة. فتقبّلها جوهر وأضمر الفتك به، وتخيّر لذلك يوم فصوله من بلده. وأسرّ إلى بعض مستخلصيه من الأتباع، فأوقعوا نفرة من أعقاب العسكر طار إليها الزّعماء من كتامة وصنهاجة وزناتة. وتقبّض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة فغصّ بالرّماح على أيدي رجالات

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ترجمة 118، ابن خلدون، ج 7، ص 37ـ 45. يعود انتشار بني يفرن حول تلمسان إلى سنة 124 هـ، تاريخ تأسيس إمارة بني قرّة الصّفريّة بتلمسان. على أنّهم لم يشاركوا على الأرجح في حركة أبي يزيد مخلد بن كيداد، وهو ما يسّر لهم إنشاء قاعدة خاصّة بهم، وهي مدينة إيفكان سنة 338 هـ / 949-50م. ولمّا تولّى يعلى بن محمّد قيادة طنجة ثمّ فاس سنة 347 /958، انتقلت جموع من هذا القبيل إلى المغرب الأقصى. وذكر ابن خلدون (ص 36) أنّ يعلى بن محمّد بن صالح " اختطّ مدينة إيفكان". انظر أيضا : عبد الرّحمان علي حجّي، **جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري**، بيروت (دار الإرشاد)، 1968

Golvin, Le Maghreb central sous les Zirides, p35

كتامة وصنهاجة، وذهب دمه هدرا بين القبائل. وخرّب جوهر مدينة إيفكان وفرّت زناتة أمامه وكشف القناع في مطالبتهم"[1].

وقد تكرّرت هذه العلاقة المتميّزة بين ناحية وهران والأندلس، لمّا خالف منصور بن بلقين على عمّه الأمير زيري بن مناد الصّنهاجي واقتطع أعمال تلمسان ووهران وشلف، فطمع ابن أبي عامر في الهيمنة عليه[2].

3ـ رواية محمّد بن أبي راس :

تناول أبو راس باقتضاب عن طور نشأة المدينة وعن التّنافس بين الفاطميين من جهة والأندلسيين وزناتة من جهة أخرى. غير أنّه انفرد بالتعرّض للولاة الذين حكموا المدينة بين سنتي360 و391 هـ.

رواية البكري	رواية محمّد بن أحمد بن أبي راس
طور نفزة وبني مزقن ومرحلة النّشأة : استوطنت مجال وهران بين سنتي (290ـ 297 هـ / 904-909م)، وظلّت مسيطرة على المدينة إلى أن بسطت أزداجة نفوذها عليها. ويرجّح أنّها من بين	اختطّ خزر بن صولات بن ونزمار من بني خزر وهران عام 290

1- ابن خلدون، **تاريخ**، ج7، ص37.
2- **مفاخر البربر**، ص156.

القبائل التي نزلت منذ العهد الرّوماني بهذه النّاحية، وقد ذكرت كذلك تحت اسم : مزغان ـ مزغنة ـ مزغنان، في علاقة بإنشاء مدينة الجزائر : جزائر بني مزغنة.	
طور أزداجة وحكم محمّد بن عون التّابع لكتامة (297- 343 هـ/ 909 -954م) : لمّا هاجمت المدينة قبائل عديدة، أضرمت النّيران في المدينة في ذي الحجّة سنة 297هـ. وكان أن استنجد بنو مسقن بأزداجة، فأنجدوهم. وقد عدّها ابن خلدون من بين أجذام قبائل البرانس[1]. وبهذا انتقلت الهيمنة على المدينة إليها.	خلفه ابنه محمّد بن خزر. وسنة 306، أخذت عجيسة وهران من محمّد بن خزر وظلّت بها سبعة سنوات تحت راية الأمويين بالأندلس. وسنة 313، استعادها محمّد بن خزر بعد معارك وولّى عليها ابنه الخير. وظلّت عجيسة وأزداجة تحت حكمه.

1- ابن خلدون، ج 6، ص 176. ابن حزم، 461 1

على أنّها لم تكن بعيدة عن دائرة التّأثير الأندلسي سنة 317 هـ/ 929م مثلما يفهم من نصّ ابن حيّان : " وكان الخير بن محمّد بن خزرلرئيس مغراوة] يخاطب النّاصر لدين اللّه أيضا باسمه، معرّفا له بما يجري من الأخبار على يده في الجهة التي يقوم بها لأبيه محمّد من مدينة وهران وما يليها من السّاحل. فينفذ أجوبته ويتوخّى إلطافه ومسرّته، حسبما يفعل بأبيه محمّد". وقد راسل الخير بن محمّد بن خزر يخبره فيه بنزول عبد الرحمان بن عبيد اللّه المهدي بساحل وهران وتهديمه لحصن تابع لزناتة.	
الدّور اليفرني ومرحلة الصّراع الفاطمي- الأموي أضحت المدينة تحت سلطة يعلى بن محمّد	سنة 318، استولى الفاطميون على وهران واستعملوا عليها محمّد بن عون الشّيعي،

بن صالح بين سنتي 343-347 هـ / 954-958م، وذلك بعد أن انتهى حكم أزداجة للمدينة، ودخلها يعلى بن محمّد بن صالح اليفرني وخرّبها. ورد في ابن خلدون ما يلي : " فلمّا خطب عبد الرّحمان النّاصر طاعة الأمويّة من زناتة أهل العدوة، واستألف ملوكهم، سارع يعلى لإجابته واجتمع عليها مع الخير بن محمّد بن خزر وقومه مغراوة وأجلب على وهران، فملكها سنة 343 هـ من يد محمّد بن عون، وكان ولاّه عليها صولات اللميطي أحد رجالات كتامة سنة 298 هـ.	وظلّت وهران تحت حكمهم إلى أن تحالف الأمير اليفرني يعلى بن محمّد، مؤسّس مدينة إفكان، مع الأمويين سنة 342، فولاّه عبد الرّحمان النّاصر ملك المغرب الأوسط، فحاصر يعلى : **محمّد بن عون** وعجيسة وأزداجة بوهران إلىأن تغلّب عليهم سنة 343.
نظرا إلى ميل الأمويين إلى يعلى بن محمّد سنة 341 هـ/ 953م، تحوّل رئيس مغراوة محمد بن خزر من عدوّ إلى حليف للفاطميين إلى حدّ وفاته سنة 350 هـ/ 961م. ولمّا حاول يعلى بن	تحالف محمّد بن خزر وابنه الخير مع الفاطميين وقيام حملة جوهر رفقة محمّد بن خزر سنة 347. مقتل يعلى بظاهر تاهرت وعقد لمحمّد بن خزر على وهران

محمّد التوسّع على حساب الفاطميين بوهران وطرد أزداجة منها وسيطرته على مجال يمتدّ ما بين "تاهرت وطنجة"، أثار ذلك ردّ فعل الفاطميين الذين هاجموا إيفكان وخرّبوها وأضعفوا بهذا بني يفرن بالمغرب الأوسط	
	سنة 360، فسدت العلاقة بين الفاطميين ومحمّد بن الخير بن محمّد بن خزر، نتيجة تحالف هذا الأخير مع الأمويين.فتصدّى له زيري بن مناد وحاربه ابنه بلكين بن زيري إلى أن قتل محمّد بن الخير
	سنة 361، تولّى الخير بن محمّد، وهران، وهو الأمير المغراوي الخامس
	سنة 367، موت الأمير السّادس محمّد بن الخير، لمّا تمكّن بلوكين بن زيري من الاستيلاء على المغرب الأوسط.

	وتولّى بعده الأمير السّابع محمّد بن الخير ثم التّامن : محمّد بن يعلى.
	368 : بداية حكم زيري بن عطيّة وهو الأمير التّاسع، وقد حارب كلّ من الصّنهاجيين والأمويين إلى حدّ وفاته وأنشأ إمارة مغراوة الكبرى.توفّي سنة 391.

والحصيلة، استوطنت وهران من النّشأة إلى تاريخ رحيل الفاطميين إلى المشرق مجموعات قبليّة متعدّدة وبعض الأندلسيين، وكانت إحدى المحاور الأساسيّة في التنافس البحري والبرّي الحاصل بين الفاطميين والأمويين، وذلك اعتمادا على القبائل الزناتيّة والصّنهاجيّة النّازلة في هذا المجال. وقد جسّد هذا التّنافس البحري معركة الحصون السّاحليّة بين الفاطميين وبني يفرن أنصار الأمويين. ويبدو أنّ الرّغبة في السّيطرة على مسالك التّجارة المتوسّطيّة والبريّة، حيث تصل طرق السّودان إلى تلمسان ووهران، يفسّر هذا التّنافس بين القوّتين، علما بأنّ زناتة اضطلعت بدور هامّ في تجارة الذّهب بكامل بلاد المغرب.

4 ـ المنشآت البحريّة بالمدينة : الميناء ودار الصّناعة :

أحيطت المدينة بأسوار منذ نشأتها على الأرجح. فقد ذكر المقدسي أنّ "وهران بحريّة مسوّرة". وفي الإدريسي "وهران على مقربة من ضفّة البحر الملح، وعليها سور تراب متقن. وبها أسوار مقدّرة وصنائع كثيرة وتجارات نافعة".واعتبرت الميناء المتقدّم لتلمسان، التي ارتبط مصيرها بها. وقد ذكر بها ميناءان :

أ ـ المرسى الكبير والمرسى الصّغير : من المرجّح أنّ ابن حوقل عنى المرسى الكبير في قوله : " ولمدينة وهران مرسى في غاية السّلامة والصّون من كلّ ريح وما أظنّ له مثلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن وعليها سور "[1]. أمّا في خصوص المرسى الصّغير، فقد وصفه الحميري بما يلي : " ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا". وهو ما يختلف مع ما جاء في خصوص المرسى الكبير : " ولها على ميلين منها المرسى الكبير، به ترسي السّفن الكبار وهو يستر من كلّ ريح، لا مثال له في المراسي"[2].

على أنّ الإدريسي كان أكثر وضوحا في شأن المرسى الكبير، إذ قال : "ولها على ميلين منها المرسى الكبير. وبه ترسي المراكب الكبار والسّفن السّفريّة. وهذا المرسى يستر من كلّ ريح.

---

1 ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص79.

2- الحميري، **الرّوض المعطار**، ص 613.

وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر... ومراكب الأندلس إليها مختلفة".

وفي نفس السّياق، أضاف صاحب الاستبصار : "ولوهران مرسى كبير مشتى للسّفن، يكنّ من الرّيح لأنّه في حوز جبل مطلّ على وهران مرتفع".

وعرّف الحسن الوزّان هذا المرسى بما يلي : " المرسى الكبير : مدينة صغيرة أسّسها ملوك تلمسان على البحر بعيدة بضعة أميال، وكان من عادة سفن البندقيّة أن تلجأ إلى المرسى الكبير وترسل بضائعها في قوارب إلى وهران. وإذا كان الجوّ صحوا، قصدت ساحل وهران مباشرة".

وفي الجملة، تذكّرنا هذه الثنائيّة في المراسي بمرسى تونس وكذلك المهديّة التي لم تعدم من وجود مينائين وداري صناعة. وقد ركّز جلّ الجغرافيين على العلاقة المتميّزة التي تربط بين وهران والأندلس. قال المقدسي : " يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة". وأضاف الإدريسي : " وهي تقابل مدينة المريّة من ساحل برّ الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان ومنه أكثر ميرة ساحل جزيرة الأندلس".

ويمكن أن نفسّر تطوّر هذا الميناء بالعوامل التّالية : موقع المرسى الكبير الاستراتيجي بين صفتي المتوسط، وحاجة الأندلس إلى بضائع المغرب وخصوصا الحبوب، مقابل وسق الخشب من شرق

الأندلس، وذلك فضلا عن خصوبة المنطقة وأهميّة خطوط التّجارة الصّحراوية التي تصل تلمسان ووهران.

ثانيا ـ أهمية المرسى الكبير في العصرين المرابطي والموحّدي :

أ- على العهد المرابطي (474ـ539 هـ / 1082 ـ1145م) :

لمّا أضحت تلمسان ملتقى للطّرقات التّجاريّة الصّحراويّة والقادمة من المشرق، عرفت وهران تعميرا وتمدينا كبيرين على عهد يوسف بن تاشفين، وازداد نشاط ميناء وهران الرّابط مع مدينة المريّة في تلك الحقبة. ومن الجليّ أنّ المرابطين أنشأوا بها دار صناعة للسّفن مثلما تبيّنه أحداث سنة 539 / 1145م

فبعد انتصار الموحّدين على آخر أمير مرابطي تاشفين بن علي بن يوسف في ناحية تلمسان في 30 رمضان 539 هـ/ الاثنين 26 مارس سنة 1145م، انتقل تاشفين إلى وهران، حيث بنى حصنا "حتى بقى عسكره أيّاما دون علف في الحصن الذي بناه من أجل الحصار " حسب رواية ابن عذاري في الجزء الموحّدي. وذكر أنّ أسرة تاشفين التجأت إلى حصن يتّسع لثلاثمائة شخص. غير أنّ هذه الأحداث وردت بكيفيّة مختلفة في القسم المرابطي من "البيان المغرب"، الذي جاء فيه : "وفي ظاهر وهران ربوة على البحر تسمّى صلب الكلب وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبّدون، وفي ليلة 27 من شهر رمضان سنة 539 صعد تاشفين إلى ذلك الرّباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة.." وحاصروه في هذا الرّباط.

وعلى أيّ حال، فإنّ هذه الأحداث هامّة في أهميّة الحصن الواقع في مرتفع والمشرف على البحر في حصار المدينة، وفي رصد القبائل الزّناتيّة الموجودة في النّاحية، منها بني ومانو وتوجين وورسيفن، وفي معرفة مواضع المدينة ومعالمها، منها " الجبل المطلّ على وهران " ولعلّه جبل حيدرة لدى يحيى بن خلدون[1]، وعين الماء التي يشرب منا أهل وهران" و" حمى سور وهران " والحصن القريب منه أو الرّباط، وكذلك الرّحى التي على الوادي، وخصوصا الميناء الذي فرّ منه بعض أصحابه، حسب رواية صاحب كتاب مفاخر البربر : " فهرب (تاشفين بن علي) إلى وهران واتّبعه عبد المؤمن بن علي، وحاصره في المحرس. فلمّا رأى ما لا طاقة له به، أحرق كلّ ما في محلّته من الأمتعة، فخرج هو وأصحابه، ففرّ كلّ واحد منهم حيث توجّهت دابّته. فمنهم من قتل ومنهم من دخل البحر في قطائع كانت لتاشفين بمرسى وهران عليها القائد محمّد بن ميمون"[2].

2 ـ التطوّرات الحاصلة زمن الموحّدين (539ـ630 هـ / 1145 ـ 1232م) :

تميّزت الحقبة الموحّديّة بتوحيد شبه كامل للمجالين المغربي والأندلسي وبتأمين نشاط المحاور التّجاريّة الصّحراويّة. ممّا أدّى إلى

1- يحيى بن خلدون، ج1، ص209.

2 - **مفاخر البربر**، ص 200. ابن عذاري، **البيان المغرب**، الجزء 3، ص 20 ـ23. وقد ذكر ابن عذاري (الجزء الخاص بالمرابطين، ص100، 104، 124) أنّ هجومات الموحّدين على وهران وما تبعها من غنائم مجلوبة منها قد بدا منذ سنة 536 هـ، وأنّ" القائد ابن ميمون كان في الأسطول في البحر برسم أن يطلع تاشفين فيها إذا رأى ما لا طاقة له من قتال الموحدين فلم يقدّر الله".وكان في نيّته الانتقال إلى برّ الأندلس.

ازدياد أهميّة الموانى المغربيّة الشّماليّة التي أضحت نقطة وصول بضائع بلاد السّودان والمغربين الأوسط والأقصى. ونظرا إلى طبيعة موقع وهران السّاحلي، اشتغل أكثر سكّانها بالتّجارة، حسب شهادة ياقوت الحموي[1]. على أنّ هذه الصّورة تطوّرت في آخر العصر الوسيط، بعد أن تراجعت التجارة الصّحراويّة وازدادت القرصنة في المتوسّط، وأضحى "معظم سكّانها من الصنّاع والحاكة" مثلما ذكر ذلك الحسن الوزّان.

كما عرفت الزّراعة تطوّرا واضحا، وخصوصا إنتاج الحبوب وتصديرها بحرا صوب الأندلس والمدن التّجاريّة الأوروبيّة[2].

وكانت وهران من ضمن المراسي التي استخدمها الموحّدون لصناعة السّفن، إلى جانب طنجة وسبتة وبادس وبلاد الرّيف وهنين وعنابة وتونس والمهديّة والجزيرة الخضراء وشلب وقادس والمريّة اللتان كانتا مركز الأسطول المرابطي[3].

1- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت 1975، ج 5، ص 385.386.

2- قال الإدريسي في هذا الصّدد : و" شرب أهلها ممّن يجري إليها من البرّ وعليه بساتين وجنّات وبها فواكه ممكنة. وأهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السّمن والزّبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثّمن اليسير ". وأضاف صاحب الاستبصار : " وهي مدينة كثيرة البساتين والثّمار ولها ماء سائح وأنهار كثيرة وأرحاء وعيون، وهي من أعزّ البلاد ولها نظر كبير فيه قرية كبيرة فيها آثار قديمة".

3- عز الدين موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم**، ص 266.

وقد ساعد أنشاء عبد المؤمن مائة مركب بمينائي وهران وهنين سنة 557هـ/ 1162م، على ازدياد دور الميناء التّجاري والعسكري، وذلك في حقبة شهدت انتقال مركز الثّقل من موانى المريّة ودانية إلى سبتة (التي عوّضت المريّة) ومالقة وإشبيلية ومرسية، وما يعني ذلك من تغيير المسالك البحريّة الرّابطة بين وهران وبرّ العدوة. وتواصل ذلك في العهد الزيّاني، وخصوصا سنتي 1331 و1348[1].

ولمّا أبرمت العاهدات التّجاريّة بين الموحّدين من جهة والمدن التّجاريّة من جهة ثانية (بيشا سنة 1133، 1166، 1186، وجنوة سنوات : (1138، 1153، 1160)، كانت وهران من بين الموانى التي حدّدت فيها إقامة التجّار الأجانب إلى جانب سبتة وبجاية وتونس، زمن الخليفة المنصور، في 15 نوفمبر سنة 1186م، وذلك تسهيلا لمراقبة حركة التجّار وأخذ الجباية عليهم. ومنذ سنة 1228، أشارت المصادر

1- تجسّدت أهميّة المدينة في مكانة عبد اللّه بن جبل من أهل وهران، كاتب عبد المؤمن بن علي لدى الدّولة الموحّديّة. وعبد اللّه بن جبل : من كتّاب عبد المؤمن بن علي، ذكره ابن صاحب الصلاة (ص 150، 223، 231) وابن عذاري (ص 80) وابن أبي زرع (ص 205). واعتبره عبد الواحد المركشي (المعجب، ص 269) من بين قضاته. وقال ابن صاحب الصلاة إنّه كان صاحب أبي الحسن بن الإشبيلي عند الخليفة يخطب بعده. وترجم له ابن الأبار وقال أنذ أصله من الأندلس وأنّه كان فقيها وخطيبا مفوّها. توفّي بمراكش في مستهل ربيع الآخر سنة 557 هـ ودفن بروضة الشّيوخ. حول الطرقات البحريّة، ينظر : عز الدّين موسى، النّشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السّادس هـ / 12م، بيروت 1983، ص320-321.

اللاتينيّة إلى وجود فنادق للتجّار الأوروبيين بكلّ من بجاية وتونس ووهران وسبتة[1].

وفضلا عن العلاقات مع برشلونة، فقد ارتبط المرسى الكبير بجنوة. ففي سنة 1201، ذكر خطّ سير سفينة جنويّة : جنوة ـ مرسيليا ـ سبتة ـ وهران ـ بجاية ـ تونس ـ مسّينة ـ الإسكندريّة ـ سبتة ـ الإسكندريّة ـ جنوة. وشهد الاستثمار الجنوي بوهران تطوّرا بكيفيّة مطّردة ابتداء من سنة 1186م :

1186 ـ 10 دنانير جنويّة

1190 ـ 86

1191ـ 1047

وفي محصّلة هذا الفصل، فقد انعكس توحيد المجال المغربي الأندلسي إيجابا على وهران، التي لم تعد محور تنافس، إنّما تحوّلت إلى مقرّ للأسطول المرابطي الموحّدي، مزوّد بدار صناعة.

ثالثا ـ التجارة والقرصنة على عهد بني زيّان (630 ـ 915 هـ / 1232 ـ1509م)

ظلّت المدينة محافظة على مكانة متوسّطة إلى سنة 1450، مقارنة مع بجاية. ثمّ أصبحت من بين المدن الهامّة بالمغرب الأوسط على عهد الحسن الوزّان : فقد كان بها 6000 كانون. ويمكن

---

1 Mas-Latrie, traités de paix et de commerce, p89-90.

مقارنتها مع تلمسان : 16000 وتونس : 10000 وبجاية وقسنطينة : 8000 وكذلك مع الجزائر : 4000 وجيجل : 500 وبونة : 300.

1. تطوّر المسالك البريّة والبحريّة :

تواصل في هذه الحقبة النّشاط البحري بميناء وهران الذي ظلّ أهمّ ميناء في مملكة بني زيّان، إلى جانب هنين، فيما مثّلت تلمسان نقطة وصول القوافل القادمة من الصّحراء عبر توات التي عوّضت سجلماسة، وذلك ابتداء من القرن الثّامن هـ/ الرابع عشر م. وتفرّع هذا المسلك إلى توات - تلمسان - هنين أو توات - تلمسان - وهران. وقد كان السّلطان أبو حمّو موسى يقول : " لولا الشّناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير تجّار الصّحراء الذين يذهبون بخبيث السّلع ويأتون بالتّبر الذي كلّ أمر الدّنيا له تبع". وقد مثّلت كلّ من هنين ووهران المتكاملين فيما بينهما ميناء متقدّما لتلمسان التي ارتبطت بتجارة الصّحراء وبإنتاج الحبوب[1].

وارتبطت مع المشرق بمسالك وطرقات مختلفة شيء ما عمّا كانت عليه في الحقبة السّابقة. فلئن ذكر البكري طريقا بين القيروان ووهران، فقد اتّبع العبدري (في رحلته سنة 688 هـ/ 1289م) مسلكا تليّا، يمرّ بباجة - قسنطينة - بجاية - مليانة - وهران - فاس - مكناس، فيما جانبت كلّ من رحلة ابن بطوطة (725م / 1324)

1- المقّري، **نفح الطّيب**، ج 5، ص205.

وخالد البلوي (1335/736) وعبد الباسط بن خليل (1464/868) طريق وهران، ومرّت بتلمسان.

أمّا في خصوص الطّرقات البحريّة، فقد انطلق القلصادي من بسطة فالمنكّب ومنها إلى وهران - تونس - جربة- طرابلس - الإسكندريّة، وذلك سنة 840 هـ/1436م. قال في هذا الصّدد : "وأقمنا بها أيّاما في سرور وأمان ثمّ توجّهنا إلى المقصودة بالذات المخصوصة بأكمل الصّفات : تلمسان". وعند العودة من المشرق سنة 854 / 1450، ركب البحر من تونس إلى وهران ومنها إلى المريّة التي وصلها يوم 21 أفريل 1451[1]. فقد أضحى الارتباط الأساسي عصرذاك مع الموانى الأوروبيّة : برشلونة (منذ العهد الموحّدي) وبلنسيّة وميورقة وجنوة والبندقيّة ومرسيليا، ومع الموانى المغربيّة الأندلسيّة الكبرى : المريّة وسبتة وبجاية وتونس.

وفضلا عن علاقاتها مع المدن الأوروبيّة، كانت ترنو ببصرها إلى المجال المشترك : الأندلس والمغرب الأقصى، وذلك نظرا إلى العلاقات التّجاريّة المتينة بين وهران والمريّة، وهي أهمّ ميناء لإمارة بني نصر[2]

وفي سنة 1341، ذكر خطّ سير سفينة ميورقيّة كالآتي : الجزائر - تنّس - شرشال - دليس - برشك - مزقران - وهران - هنين. وفي

1- القلصادي، رحلة، ص 95، 161.

2 Le royaume abdelouadide à l'époque d'abou Hammou Mousa 1 et d'Abou Tachifin, Alger sd, p241.

القرن التّاسع هـ / 15 م، كان الطّريق البحري يمرّ بسرقوسة ـ تونس ـ بونة ـ بجاية ـ الجزائر ـ وهران ـ هنين ـ المريّة ـ مالقة ـ الفلاندر أو أنقلترا.

وعلى غرار هنين، توفّرت بها، إدارة لديوان البحر في القرن الثّامن هـ/ الرابع عشر م، كما ذكر بها فندق للقطلون ودار الجنويين سنة 1286م، ومنزل خاص بالتجار البرتغاليين سنة 1483[1]. casa de Feituria.

ومثالا على أهميّة الميناء، بلغ عدد العمليات التجاريّة بين وهران ومرسيليا في القرن الثالث عشر : ثلاثة، فيما كان 5 بتونس و30 بسبتة و72 ببجاية. وبين سنتي 1385 و1419، وقع إحصاء 36 رحلة بين ميورقة ووهران، وهو ما يمثّل 6.2 من المائة.

2 ـ نّشاط الميناء التجاري :

ـ المعاهدات : تأسّست علاقات متينة مع مملكة الأراقون ابتداء من إبرام عقد سنة 1286، وهو أوّل عقد حصل بين الطّرفين. وكانت وهران الميناء الأساسي الذي ارتبط بموانى الأرقون، التي كان لها فندق بالمدينة وعلى رأسه مشرف، خاضع لسلطة القائد[2].

1- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 2، ص 341.342 Ma Dolores , op cit, p41.

2 Dufourq, L'Espagne catalane et le Maghreb, T 1,p 321,517.

وكانت العلاقات بين وهران وهنين من جهة وجزر البليار وبلنسية وبرشلونة من جهة ثانية شهريّة على أقلّ تقدير[1].

وفي سنة 1339م، أبرمت معاهدة بين أبي الحسن المريني وجاييم الثّاني ملك ميورقة وسردانية نصّت على تجارة الحبوب وحقّ الأوروبيين إقامة قنصليات وفنادق بالمدينة ومنعت بمقتضاها القرصنة والقطع[2].

ويوجد بالميناء ديوان البحر، لاستخلاص العشر من التجّار الأجانب، إذ ذكر ابن الباسط (1466/870) أنّ ابن صاحب الأشغال بتلمسان كان مكلّفا بأخذ العشر من تجّار البحر بوهران. وكانت إقامة البنادقة أوسط القرن الثّامن هـ/ 14م أكثر من عشرة أيّام فيما اقتصرت على أربعة بالنسبة إلى بجاية والجزائر، كما تراوحت إقامة الميورقيين بالمدينة سنة 1451 ما بين 15 و20 يوم.

وتحصّل ملوك بني زيّان مقابل ذلك على ضريبة قارّة من التجّار الوافدين على المدينة وهي ضريبة العشور، وذلك فضلا عن ضرائب تؤخذ على استعمال الميزان والخزن والتّرجمان وغيرها. وهو ما يفسّر حرص السّلاطين الزيّانيين على تشجيع هذه التّجارة.

---

1 H.Lespes, « Oran , ville et port avant l'occupation française », Revue Africaine, n° 360 , 1934 , pp.277-335.

2 De Mas Latrie, traités de paix et de commerce, p84-85. E De la Primaudaie, p 272-273.

- **الواردات والصّادرات** : اقتنى القطلون والإيطاليون الذّهب والصّوف والجلد والحبوب والرّقيق من تنّس ووهران، مقابل الأقمشة والتّوابل وموادّ الصّباغة والصّيدلة وأواني النّحاس والبلّور البندقي.

الواردات :

- سنة 1382 : نقل الملح من يابسة إلى وهران الجزائر وبجاية وتونس.

- في 1428/1/28 : استيراد أقمشة من ميورقة.

- سنة 1445 : تصدير أكسية بيضاء من مالقة إلى وهران[1]

- سنة 1450 : استيراد القطن من جنوة.

الصّادرات :

مثّلت وهران، منذ القرن الرّابع م/ العاشر م، "فرضة الأندلس إليها ترد السلاع ومنها يحملون الغلال "حسب ابن حوقل. ونظرا إلى اعتبار سهل وهران والمتيجة من أهمّ المناطق المنتجة للحبوب في مملكة بني زيّان، كانت وهران وتنّس، حسب الحسن الوزّان، من أهمّ موانى المغرب الأوسط المصدّرة للحبوب، وخصوصا لإمارة بني نصر. كما صدّرت الشّمع إلى مملكة الأرقون[2].

---

1 Ma Dolores ,op.cit., p 97.

2 Dufourq, op cit , T 2, p 546..78 ص ابن حوقل، **صورة الأرض**،

وبلغت تكاليف النّقل بين وهران وميورقة لسفينة من نوع كوكة سنة 1316 قدره 500 إلى 700 دينار. وكان ثمن النّقل بين لقنت ووهران لفارسين عشرين دينارا[1].

- في سنتي 1376 و1377، اقتنى الجنويون الذهب من وهران، مرورا بمالقة ثم قادس ومنها إلى جنوة[2].

- سنة 1382، انطلقت سفينة من ميورقة إلى وهران لنقل الحبوب لتاجر وهراني إلى بجاية. لكنّ صاحب السّفينة نقل كلّ من البضاعة وصاحبها إلى يابسة، وهو ما أدّى إلى ردّ فعل سلطان تلمسان.

- وقد ذكرت وثيقة برتغاليّة نسيجا صوفيّا مزيّنا بأشرطة بيضاء وزرقاء وخضراء وحمراء يطلق عليه الحنبل، أي الغطاء الصّوفي الذي كان يصنع بوهران وتنّس وبونة وتونس[3]. (Hambels)

- سنة 1459 : مرّ مركب فلورنسي بجزر البليار - القل - بجاية - دلس - الجزائر - وهران - هنين ثم مالقة فبلنسية - برشلونة وأخيرا عاد إلى بيشا[4].

---

1 Dufourq, op cit, T2, p536 , 539.

2 J Heers, Gênes au XV eme s, p67.

3 Valérian, Bougie, p218. Dufourq, op cit, T 2, p 471.Ma Dolores Rodriges, op cit, p 95.

4 Ma Dolores, op cit, p 70 -71.

3 ـ يوميّات الغزو والقرصنة بالمرسى الكبير :

تعرّض المرسى الكبير إلى الغزو منذ حقبة إنشاء مملكة بني زيّان، وخصوصا سنة 700 هـ/ 1300. وشهدت الحقبة التي عاش فيها الصّالح محمّد الهوّاري المتوفّى سنة 843 هـ/ 1439م الذي تنسب إليه أسطورة إنباط الماء من عيون بلال، وتلميذه ابراهيم التّازي (ت سنة 866 هـ /1462م) ازدياد حركات القطع والقرصنة [1].

ـ حركات القطع والقرصنة :

ـ سبتمبر 1328، تمكّنت سفينة ميورقيّة على متنها **فيل** أرسله الفنسو الرابع إلى غرناطة من الالتجاء إلى ميناء وهران هروبا من قراصنة نصارى[2].

ـ سنة 1381 : سلّم تاجر تونسي حمولة من الحرير إلى صاحب سفينة ميورقيّة، كي ينقلها إلى تونس. على أنّ صاحب السّفينة غيّر وجهتها إلى ميورقة خوفا من التعرّض للقطع ببجاية.

---

1 Dufourq, l'Espagne catalane et le maghreb au XII et XIV ème s., Paris196, T1,p145. حاصر المرينيون المدينة سنة 695 هـ / 1296 م، وسيطروا عليها وعلى وبرشك وشرشال والجزائر سنة 1300. وفي سنة 735هـ /1334، غزا أبو الحسن وهران وهنين. وفي سنة 1347 م، استقرّ أبو الحسن المريني بها، وتولّى بناء التّحصينات بالمرسى الكبير. وحصلت آخر محاولة للمرينيين للسّيطرة عليها في عهد أبي حمّو موسى، سنة 770 هـ / 1368 م.

2 Dufourq, op cit, T2, p485.

- سنة 1409 : اعترض قراصنة من بلنسيّة سفينة مغربيّة محمّلة بخشب النّشاب (3000 إلى 4000) لنقلها من بجاية إلى وهران، حيث تفرغ حمولتها وتحمل القمح إلى مالقة.

- في نفس السّنة : تعرّض قارب على ظهره ملاّحون من فاس وتلمسان وبجاية وتونس إلى القطع من قبل بلنسيين، وكان قد انطلق من بجاية محمّلا بنشاب السّهام إلى وهران، حيث أفرغ حمولته وعبّأ الحبوب في اتّجاه مالقة.

- سنة 1410م : استحوذت سفينة قشتاليّة قرب مستغانم على مركب من بجاية محمّلا بالخشب والجلد المحمول إلى وهران، وعلى ظهره 11 ملاّح.

- في نفس السّنة : تعرّضت سفينة للقرصنة وهي تنقل الخشب والجلد من بجاية إلى وهران[1].

- وبين سنتي 1400.1470 : تمّ أسر 107 بلنسي ببجاية و67 بالجزائر و5 فقط بوهران[2].

- في 17 ماي 1509 : تمكّن بيدرو نفارّو من احتلال مدينة وهران وذلك بعد سنوات من الحروب والمقاومة، انتهت بأسر 8000 وقتل 4000 من بين المدافعين عن المدينة. وقد تلتها سقوط بجاية،

---

1 Ibidem, p412, 508, 539.

2 Ibidem,p434.

وتواصل صمود طرابلس وجربة سنة 1510. وقد عمد الإسبان إلى الاستيطان بالمدينة، وكان من بينهم 600 تاجر وحرفي.

- وصف لعمليّة قرصنة :

لدينا وصف دقيق لإحدى حركات القرصنة التي قام بها أحد قراصنة قشتالة وهو "بيرو نينيو" على المدينة بين شهري أفريل - ماي سنة 1404م ومارس 1405[1]. وبأمر من الملك هنري الثالث (1390 -406)، تولّى الفارس بيرو نينيو تجهيز سفن للقيام بعمليات قرصنة على كامل ساحل بلاد المغرب، وصولا إلى مدينة تونس، علما بأنّ الظّرفيّة تميّزت بازدياد حركات القرصنة والقطع في البحر المتوسّط.

1Pero Nino, El Victorial,Madrid 2000.

تاريخ الانطلاق	ميناء الانطلاق	قائد الحملة	القيادة	التّعبئة	الأسطول	المسلك
أفريل 1404	إشبيلية	بيرو نينيو	خبراء في شؤون البحر : الجنوي بونال والإشبيلي خوان بوينو الذي نعت بأفضل بحّار لسفن إسبانيا	تحضير الأسلحة وتعبئة المحاربين	سفينة كبيرة قادها بيرو نينيو وقاد أخرى ابن عمّه فرناندو نينيو وقاد المركب دي لاريدو	- استعراض بإشبيلية (كوريادل ريّو) حيث قبل ضيافة أحد النّبلاء صحبة ثلاثين فارس تابعين له وتخلّلت المأدبة حوار حول الحرب والحبّ وتمثّلت في طاووس مصليّ، على أنغام الموسيقى - الوصول إلى جبل طارق : قبول الضّيافة (طعام فيه لحم البقر والغنم والدّجاج والخبز والكسكسي، مع غناء وموسقى (الشبّابة) ورقص - الوصول إلى مالقة : قدّمت لهم الضّيافة في مراكب مغطّاة بأقمشة من الحرير والذّهب، على نغمات الطّبل، مع استعراض

						للفروسيّة شارك فيه 500 فارس، وقد زاروا المدينة : دار الصناعة وحي اليهود ومنزل الجنويين. - الوصول إلى قرطاجنّة والانطلاق من هناك للقيام بعمليات القرصنة

عمليات القرصنة

الموقع	عمليّة القرصنة
غيران القصبار Alcoçevar	الغارة الأولى : الحاجة للحصول على الماء، قيام نينيو مع 20 رجل بالهجوم على عيون الماء بحثا عن سفن مغربيّة، غير أنّهم لم يجدوا شيئا
الوصول إلى جزر حبيبه قبالة وهران Habibas	
الاتّجاه إلى تونس	الغارة الثّانية
وصلوا من جديد قبالة وهران في جزر الحبيبة حيث توجد عديد الطيور التي تعشّش في الأرض (حمام وغربان وصقور وحجل وغيرها) استعملت للغذاء، غير أنّه لا يوجد بها ماء، بمعنى أنّها غير مسكونة.	الغارة الثّالثة : قرب أرزاو البالية اختبأوا للقطع على السّفن المارّة من هناك. ولمّا يئسوا من الترقّب، نزلوا إلى دوّار فيه 00 3 ساكن بعيد عن البحر ميلين أو 3.5كم. وقد أمره بيرو نينيو بالسّرقة والحرق وبأسر النّساء والأطفال والرّجال. لكن المبعوثين للتعرّف على الدوار رجعا دون العثور عليه.

وقد قبضا على رجل أعلمهما أنّ الدوّار محاصر من قبل أحد قواد العرب : محمّد مولاي آجي، أخو ملك بني مرين، ومعه 1500 فارس، وأعلمهما بأنّ معسكره المسمّى **الحُرْمة** حيث النّساء والأطفال يوجد قرب أرزاو البالي.

اتفقوا على غزو معسكر ابن آجي، وأخذ بعض الرجال مكانهم في الطلائع لمراقبة الموقع. ذبح الأغنام. . باغتوا الأعراب النّازلين في مرتفع، وظل بعض الأعراب يدافعون عن المكان فيما انسحب آخرون مع النساء والأولاد. وعند وصول القشتاليين المكان، وجدوا بسطا كثيرة (قطائف وجرار ملأى بالزبد والعسل ولحم مجفّف وخبز وقمح وتمر ولوز وأطعمة وريش النّعام. .. وقاموا بسرقة وإتلاف وحرق المعسكر ثم انسحبوا بصعوبة إلى البحر وغادروا المكان.

- الغزوة الرّابعة : عادوا من جديد إلى دوّار فيه أربع أو خمس منازل، ولم يجدوا أحدا به، فسرقوا الثّياب والحليّ. لكن سرعان ما وقع التفطّن إليهم وتمّ الإعلام عن ذلك بإشعال النيران وهرع السكان إليهم من كلّ صوب. وهي منطقة عامرة بكثرة لوجود مناجم الكحل بها.

وفي الليل مرّ الغزاة أمام وهران ورموا المدينة بنبال كبيرة مغموسة في القطران

	لإشعال الحرائق. ومن الغد كانوا بالمرسى الكبير بحثا عن سفينة كبيرة علموا بوجودها هناك، لكنّها وقعت حمايتها من العدوان. وفي المساء نزلوا قرب غيران القصبار واحتاجوا من جديد للماء، وصف المؤلف خطورة المكان ومدى ارتفاعه عن البحر، ووجود أكثر من 5000 فارس هناك، أمطروهم بالحجارة، لكن حسب النص انتصروا من جديد. وأجبرتهم رداءة الطّقس في شهر أكتوبر على البقاء بجزر الحبيبة عشرين يوما، وبدأ الزاد ينفذ واحتاجوا كل مرّة للتزوّد بالماء. وعرف هذا المكان بكونه مقبرةل لنصارى المغامرين، وكانت تحصل فيه معارك كلما احتاجوا إلى الماء. - العودة إلى قرطاجنّة ثم أمرهم الملك بالعودة إلى دار الصناعة بإشبيلية. وفي الطريق قام بقطع آخر لسفينة أرقونيّة اكتراها تجار مسلمون وهي محمّلة بالرقيق السودانيات والشمع والقرمز وملابس صوفية بيضاء وبضائع أخرى ذات (لعلّها مشتقّة من الكساء) قيّمة. alquizeres

وعموما، اعتبرت وهران إحدى النّقاط التي عرفت حركة القرصنة والقطع من الجانبين، غير أنّها تأتي في مرتبة متأخّرة بعد بجاية والجزائر.

- يوميّات ابن عبد الباسط البحريّة سنة 869 هـ/1464م

تبيّن هذه الرّزنامة الوهرانية التي نقلها ابن عبد الباسط أهميّة البحر في حياة النّاس وفي تناقل السلع والأخبار من خارج هذا المجال، وتقاطع علاقات التّجارة والقطع :

- في رمضان، انتقل ابن عبد الباسط إلى تلمسان حيث نزل بمنزل صاحب الأشغال لدى محمّد بن أبي ثابت، عبد الرّحمان بن النجّار
- محرّم سنة 870 هـ : زيارة الصّخرة التي بساحل وهران، بعد خروجه من باب البحر، وهي صخرة عظيمة وفيها مسجد لطيف للزّيارة.
- آخر محرّم انتقال قاضي الجماعة بتلمسان أبو عبد اللّه محمّد بن العقباني إلى تونس لتهدئة خواطر أبي عمرو عثمان.
- الأربعاء 9 صفر : أخبار وردت إلى وهران بقيام بني وطّاس على المرينيين.
- في هذا الشهر، أخبار عن صعوبة عودة التجّار من فاس إلى تلمسان، وذلك باستعمال حيلة وهي التظاهر بكونهم مجذومين.
- رجب 870 : العودة إلى وهران ومنها التوجّه إلى تونس.
- الأحد 14 رجب : قدم عبد اللّه بن عبد الرحمان بن النجّار ولد صاحب الأشغال بتلمسان لأجل تعشير مراكب قدمت من الفرنج بمتاجر لمدينة وهران... وكان المشرف على وهران رجل من أهلها يدعى محمد الزكّاجي وهو المدبّر للمدينة ومن رؤسائها.

- 20 رجب : كثر الخوف بالمدينة بمجيء أبي عمرو عثمان إلى تلمسان وهي أخبار باطلة
- أواخر رجب : ظهرت أربعة مراكب للفرنج متّجهة إلى المغرب، فخاف أهل النواحي من أن تكون مشحونة بالمقاتلة لغزوهم، لكنّها لم تقترب من وهران وقامت بقطع بنوحي بجاية
- 29 صفر 871 : وصلت إلى ساحل وهران **شونيّة عظيمة** من مراكب الفرنج الجنويين برسم الاتجار في الجوخ، وقدمت من فلاندة من المحيط وسافر فيها كثير من تجار وهران وتلمسان إلى تونس وكان من بينهم ابن عبد الباسط.
- السبت 14 ربيع الأوّل، انحراف المركب المذكور ونزوله قرب بجاية ومداهمة البجائيين له خوفا من القرصنة، لأنّه سبق أن تزيى القراصنة بزي المسلمين وهاجموهم.

- مهاجرون أندلسيون بالمرسى الكبير

مثلما انتقلت البضائع بنسق متّصل بين العدوتين، فإنّ المرسى الكبير لم يتردّد في استقبال من قذف بهم اليمّ من برّ العدوة الأندلسيّة عند حصول الطّرد الجماعي. وقد مثّلت الزّوايا نقاط استقبال لجموع المطرودين وإعادة توطينهم في البلاد[1].

منذ زمن ابن خلدون، برز هذا الحراك الاجتماعي. وقد تجسّد في الجدل القائم حول جواز الهجرة الأندلسيّة من عدمها. فقد

1- نبذة العصر، ص 48 : ط وخرج ما بقي من أهل غرناطة في 15 يوما على بجاية ووهران".

أفتى أبو زيد عبد الرّحمان بن عبد اللّه بن محمّد بن يوسف الصّنهاجي الشّهير بابن مقلاش في 12 جمادى الثّانية سنة 794 /6 ماي 1392م، وذلك بطلب من "أهل الثّغر"، الأندلسيين، وقد كان الطّالب المهاجر : أبو عبد اللّه محمّد بن سلامة بن جميل هو الذي أعلمه بالسّؤال عن جواز الهجرة أم لا. وأجاب المشاور الوهراني بفتوى مطوّلة في هذا الغرض، ذاكرا بالخصو ص : "ومن يسكن بلاد النّصارى لا غيرة فيه. .. ومن سكن بلاد الكفرة، فقد تفرّق من المسلمين". وهو تحريض ظاهر على الهجرة، وكذلك كان موقف أبي العبّاس أحمد الونشريسي : "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر وما يترتّب عليه من العقوبة والزّواجر". وذكرت تّعليلات ومسوّغات عديدة في هذا الصّدد[1].

وفي الأخير فقد راوحت يوميات المرسى الكبير طيلة هذه الحقبة الأخيرة من العصر الوسيط بين التّجارة والقرصنة، دون أن يفقد مكانته ضمن منظومة الموانى المغاربيّة خصوصا والمتوسّطيّة عموما.

خاتمة

اقترن تاريخ المرسى الكبير بالبحر منذ نشأته، فكان ميناء نشيطا مفتوحا على البرّ والبحر في الآن نفسه، إذ ارتبط بعلاقات وطيدة مع تلمسان وما والاها من بلاد المغرب الأوسط، وكان مخزنا لبضائع بلاد السّودان، وفتح أبوابه للتجّار والزائرين القادمين إليها

1 H.Buzineb, "Respuestas de jurisconsultos Maghrebies en torno a la inmigracion de musulmanes hispanos",

من المراسي الأندلسيّة والمغربيّة ومن موانى إفريقيّة والمشرق ومن العدوة الأوروبيّة، ممثّلا بذلك إحدى المحطّات الكبرى للسّفن في تنقّلها ومفصلا أساسيّا للطّرقات البحريّة. وهو ما بوّأه لدور اقتصادي واجتماعي وثقافي هامّ في تاريخ المغارب، وإنْ كان لا يخلو تاريخه من فترات حرجة من الغزو والقرصنة.